

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٦ - سُورَةُ يَسٍ

هي مكية . واستثنى منها بعضهم قوله تعالى (١) (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ) الآية لما أخرجه الترمذي (٢) والحاكم عن أبي سعيد قال : كانت بنو سلمة في ناحية المدينة . فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية . ولا حاجة لدعوى الاستثناء فيها وفي نظائرها . لأن ذلك مبنى على أن المراد بالنزول أن الواقعة كانت سبباً لنزولها ، مع أن النزول في الآثار يشمل ذلك ، وكل ما تصدق عليه الآية ، كما بيناه مراراً . لاسيما في المقدمة . يؤيده أنه جاء في هذه الرواية أنه ﷺ قرأ لهم هذه الآية . كما في رواية الصحيحين (٣) . وهكذا يقال فياروى أن آية (٤) (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ انْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) من هذه السورة نزلت في المنافقين . فإن المراد ما ذكرناه . ولم يهتد لهذا التحقيق أرباب الحواشي هنا ، فاحفظه . وآياتها ثلاث وثمانون آية . ومما روى في فضلها ما أخرجه (٥) الترمذي عن أنس رفعه : إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس ، وفي إسناده ضعف .

(١) [٣٦ / يس / ١٢] .

(٢) أخرجه في : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٣٦ - سورة يس ، ١ - حدثنا محمد بن وزير الواسطي

(٣) أخرجه البخاري في : ١٠ - كتاب الأذان ، ٣٣ - باب احتساب الآثار ، حديث

٤١٥ ، عن أنس ، وليس في مسلم .

(٤) [٣٦ / يس / ٣٧] .

(٥) أخرجه في : ٤٢ - كتاب ثواب القرآن ، ٧ - باب ما جاء في فضل يس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (يَس)

« يَس » تقدم الكلام في مثل هذه الفواتح مرارا . وحاصله - كما قاله أبو السعود - أنها إما مسرودة على نمط التعديد ، فلا حَظَّ لها من الإعراب ، أو اسم للسورة كما نص عليه الخليل وسيبويه . وعليه الأكثر . فحله الرفع على أنه خبر محذوف . أو النصب ، مفعولا محذوف ، وعليهما مدار قراءة (يَس) بالرفع والنصب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ)

« وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ » أى ذى الحكمة أو الناطق بالحكمة ، ولما كانت منزلة الحكمة من المعارف ، منزلة الرأس ، وكانت أخص أوصاف التنزيل ، أُورِثَتْ في القَسَمِ به دون بقية صفاته ، لذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)

[٤] (عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وهو الموصل إلى المطوب بدون لتوب .
والتمسك بالتمسك والتعظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

« تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ » بالنصب على إضمار فعله ، وبالرفع خبر لمخذوف . أو خبر لـ (يس) إن كان اسماً للسورة . أو مؤولاً بها . والجملة التسميية معترضة . والقسم لتأكيد المقسم عليه والمقسم به ، اهتماماً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ)

« لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ » أى برسول ولا كتاب « فَهُمْ غَافِلُونَ » أى عن أمر حق الخالق والمخلوق ، بالكفر والفساد ونكران البعث والمعاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ » أى استأهلوا لأن ينزل بهم العذاب وينتقم منهم أشد الانتقام « فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لا يريدون أن يؤمنوا ويهتدوا ، كفرا وكبرا وعنادا .
وبغيا فى الأرض بغير الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ)

« إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ » أى اللحي . أى واصلة إليها وملزومة إليها « فَهُمْ مُقْمَحُونَ » أى ناصبو رؤوسهم ، غاضو أبصارهم . يقال : أقمح الرجل ، رفع رأسه وغض بصره . وأقح الغلّ الأسير ، إذا ترك رأسه مرفوعا لضيقه ، فهو مقمح . وذلك إذا لم يتركه عمود الغلّ الذى ينخس ذقنه ، أن يطأطأ رأسه . قال ابن الأثير : هى فى

قوله تعالى (فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ) كناية عن الأيدي لاعن الأعناق . لأن الغلّ يجعل اليد تلي الذقن والعنق ، وهو مقارب للذقن . وقال الأزهريّ : أراد عز وجل أن أيديهم لما غلّت عند أعناقهم ، رفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صُعداً ، كالإبل الرافعة رؤوسها . وهذا معنى قول ابن كثير : اكتفى بذكر الغل في العنق ، عن ذكر اليدين وإن كانتا متتامتين ، لماد للسياق عليه . فإن الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهْمَهُمْ وَلَا يُبْصِرُونَ)

« وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهْمَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » قال الرغشريّ : مثل تصميمهم على الكفر ، وأنه لا سبيل إلى إرعوائهم ، بأن جعلهم كالمفلولين المقمحين ، في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يمتطون أعناقهم نحوه ، ولا يبطأطون رؤوسهم له . وكالحاصلين بين سدين . لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم ، في أن لا تأمل لهم ولا تبصر . وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله . انتهى . أي فالمجموع استعارة تمثيلية . وفي (الانتصاف) للناصر : إذا فرقت هذا التشبيه ، كان تصميمهم على الكفر مشبهاً بالأغلال . وكان استكبارهم عن قبول الحق وعن الخضوع والتواضع لاستماعه ، مشبهاً بالإقحاح . لأن المقمح لا يبطأط رأسه . وقوله (فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ) تنمة للزوم الإقحاح لهم . وكان عدم الفسك في القرون الخالية مشبهاً بسد من خلفهم ، وعدم النظر في العواقب المستقبلية مشبهاً بسد من قدامهم انتهى . فيكون فيه تشبيه متعدد . قال الشهاب : والتّمثيل أحسن منه . انتهى .

ثم قال الناصر : يحتمل أن تكون الفاء في (فهم مقمحون) للتعقيب ، كالفاء الأولى . أو للتسبب . ولا شك أن ضغط اليد مع العنق في الغلّ يوجب الإقحاح . فإن اليد ، والعياذ بالله ، تبقى ممسكة بالغل تحت الذقن ، دافعة بها ومانعة من وطأتها . ويكون التشبيه أتم على هذا التفسير . فإن

اليد متى كانت مرسلة مخلدة ، كان للمغلول بعض الفرج بإطلاقها . ولعله يتحجّل بها على فكاك الغلّ ، ولا كذلك إذا كانت مغلولة . فيضاف إلى ما ذكرناه من التشبيهات المفرقة ، أن يكون انسداد باب الحيل عليهم في الهداية والانحلاخ من ربة الكفر المقدر عليهم ، مشبها بغلّ الأيدي . فإن اليد آلة الحيلة إلى الخلاص . انتهى .

وإنما اختير هذا ، لأن ما قبله وما بعده في ذكر أحوالهم في الدنيا . وجعله أبوحيان لبيان أحوالهم في الآخرة ، على أنه حقيقة لا تمثيل فيه . فورد عليه أن يكون أجنياً في البين . وتوجيهه بأنه كالبيان لقوله ^(١) (حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ) والأول أدق ، وبالقبول أحق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

« وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ » أى خوفهم بالقرآن « أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » أى لا يريدون أن يؤمنوا . ولما صدقت الآية على مثل أبي جهل وأصحابه من كفره قریش ، الذين هلكوا في بدر ، وكانوا طواغيت الكفر ، أشار بعضهم إلى أن الآية نزلت في ذلك :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ ، فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ)

« إِنَّمَا تُنذِرُ » أى الإنذار المترتب عليه النفع « مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ » أى القرآن بالتأمل فيه والعمل به « وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ » أى عمل الصالحات لوجهه ، وإن كان لا يراه « فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ » أى لذنوبه في الدنيا « وَأَجْرٍ كَرِيمٍ » أى ثواب حسن في الجنة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ ، وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ)

« إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ » أى للبعث « وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا » أى نحفظ عليهم ما أسلفوا من الخير والشر « وَآثَرَهُمْ » أى ما تركوه من سنة صالحة ، فعمل بها بعد موتهم . أوسنة سيئة فعمل بها بعدهم « وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ » أى فى اللوح المحفوظ ، أو العلم الأزلى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا مِّثْلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ)

« وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا » أى مثل لأهل مكة مثلاً « أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ » أى اذ كر لهم قصة عجيبة ، قصة أصحاب القرية « إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ » أى الدعاة إلى الحق ورفض عبادة الأوثان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَٰهُكُمْ مُّرْسَلُونَ)

« إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ » أى فقويناها برسالة ثالث « فَقَالُوا إِنَّا إِلَٰهُكُمْ مُّرْسَلُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ)

[١٦] (قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لِنَا إِلَيْنَا يَسِّرٌ لِّمَنْ سَأَلَ) لَمُرْسَلُونَ

[١٧] (وَمَا عَلَّمْنَا إِلَّا الْبَلَّغَ الْمُبِينُ)

«قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْتُمْ إِذَا تَكذَّبْتُمْ * قَالُوا رَبَّنَا يُعَلِّمُ لِنَا إِلَيْنَا يَسِّرٌ لِّمَنْ سَأَلَ * وَمَا عَلَّمْنَا إِلَّا الْبَلَّغَ الْمُبِينُ» أى التبليغ عن الله ظاهراً بيتاً لاسترة فيه ، وقد خرجنا من عهده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ، لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرَجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا

عَذَابٌ أَلِيمٌ)

«قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ» أى تشاءمنا بكم . فكان إذا حدث فى البلد ما يسيء من حريق أو بلاء ، نسبوه إليهم . وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم . وعادة الجاهل أن يتيمنوا بكل شىء ما لوا إليه واشتهوه ، وآثروه وقبلته طباعهم . ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه . فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا ببركة هذا وبشؤم هذا . كما حكى الله عن القبط (١) (وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ) وعن مشركى مكة (٢) (وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ) أفاده الزخشرى « لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا » أى عن دعوتكم إلى التوحيد « لَنَرَجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (قَالُوا طَئِيرٌ كُمْ مَعَكُمْ ، أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِفُونَ)

«قَالُوا» أى الرسل «طَئِيرٌ كُمْ مَعَكُمْ» أى سبب شؤمكم معكم ، وهو الكفر والمعاصى «أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ» أى وعظمت بما فيه سعادتكم . وجواب الشرط محذوف ، ثقة بدلالة ما قبله عليه . أى تطيئرتم وتوعدتكم بالرجم والتعذيب « بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِفُونَ » أى فى الشؤم والمدوان .

(١) [٧ / الأعراف / ١٣١] . (٢) [٤ / النساء / ٧٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ)

« وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ » أى يسرع فى المشى ، حيث سمع بالرسول
« قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ » أى بالإيمان بالله وحده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

« اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا » أى جُملاً ولا مالاً على الإيمان « وَهُمْ مُهْتَدُونَ »
أى فى أنفسهم بالكلمات والأخلاق الكريمة والآداب الشريفة . أى فيجدر أن يُتأسى بهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَا لِي لَّا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« وَمَا لِي لَّا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي » أى خلقنى . وهذا تلطّف فى الإرشاد بإرادته
فى معرض المناصحة لنفسه ، وإحاطض النصح ، حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه .
والمراد تقريرهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره ، كما ينبئ عنه قوله « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »
أى بعد الموت .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي
شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ)

« أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً » أى فأضرع إليها وأعبدها ، وهى فى المهانة والحقارة
بجيت « إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ » أى من ذلك
الضر ، بالنصر والمظاهرة . وفيه تحميق لهم ، لأن ما يتخذ ويصنعه المخلوق ، كيف يعبد؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (إِنِّي إِذْ أَلْفَيْ ضَلَّالٍ مُّبِينٍ)

[٢٥] (إِنِّي ءَأَمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ)

« إِنِّي إِذْ أَلْفَيْ ضَلَّالٍ مُّبِينٍ * إِنِّي ءَأَمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ » أى فاسمعوا إيماني واشهدوا به . قال السمين : المجهور على كسر النون . وهى نون الوقاية ، حذفت بعدها ياء الإضافة . مجتزى عنها بكسرة النون ، وهى اللغة العالوية . وقرأ بعضهم بفتحها وهى غلط . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قِيلَ أَدْخُلِ الْجَنَّةَ ، قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)

[٢٧] (بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)

« قِيلَ أَدْخُلِ الْجَنَّةَ » أى ثواباً على صدق إيمانك وفوزك بسببه بالشهادة « قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ » أى ليقبولوا على ما أقبلت عليه ، ويضحوا لأجله النفس والنفيس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ)

« وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ » أى من بعد موته بالشهادة « مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ » أى لإهلاكهم « وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ » قال الرازى : إشارة إلى هلاكهم بعده سرّياً ، على أسهل وجه ، فإنه لم يحتج إلى إرسال جند يهلكهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ)

« إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً » أى ما كانت العقوبة إلا صيحة واحدة من السماء هلكوا بها « فَأَيُّهَا خَمِدُونَ » ميمون كالنار الخامدة . رمزاً إلى أن الحى كالنار الساطعة فى الحركة والالتهاب ، والميت كالرماد . كما قال لبيد :

وما المرء إلا كالشهابِ وضوئِهِ
يَحُورُ رماداً بعد إذ هو ساطِعُ

تنبيهات :

الأول - قال ابن كثير : روى عن كثير من السلف أن هذه القرية هى أنطاكية ، وإن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عند المسيح عيسى عليه السلام . كما نص عليه قتادة وغيره . وهو الذى لم يذكر عن أحد من متأخري المفسرين ، غيره . وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها - أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل ، لامن جهة المسيح عليه السلام . كما قال تعالى (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمُرْسَلِينَ) ولو كان هؤلاء من الحواريين ، لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام . والله أعلم . ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : إن أنتم إلا بشر مثلنا .

الثانى - أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم . وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح . ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتى فيهن بطاركة . وهن : القدس لأنها بلد المسيح . وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها . والإسكندرية لأن فيها اصطالحوا على اتخاذ البطارقة والمطارنة والأساقفة والشمامسة والراهبين . ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذى نصر دينهم وأطده . ولما ابنتى القسطنطينية نقلوا البطريرك من

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بَلِينَا وَمَا تَبَلَى النُّجُومُ الطَّوَالِعُ وَتَبَقَى الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ

يحور : يرجع ويتغير . وكل شىء تغير من حال إلى حال ، فقد حار (الشعر والشعراء ص ٢٣٦)

رومية إليها - كما ذكره غير واحد ممن ذكر توار يخهم - كسعد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين - فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله ، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخذتهم .

الثالث - أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة . وقد ذكر أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه وغير واحد من السلف ، أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة ، لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعد ذاب ببعثه عليهم . بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين . ذكره عند قوله تعالى (١) (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى) فعلى هذا يتعين أن أهل هذه القرية المذكورة فى القرآن ، قرية أخرى غير أنطاكية . كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضا . أو تكون أنطاكية - إن كان لفظها محفوظاً فى هذه القصة - مدينة أخرى غير المشهورة المعروفة . فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا فى الملة النصرانية ، ولا قبل ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى كلام ابن كثير .

وأقول : إن من محاسن التنزيل الكريم وبلاغته الخارقة ، هو الإيجاز فى الأنباء التى يقصها ، والإشارة منها إلى روحها وسرها ، حرصاً على الثمرة من أول الأمر ، واقتصاراً على موضع الفائدة ، وبعداً عن مشرب القصاص والمؤرخين . لأن القصد من قصصه الاعتبار والذكرى . وما من حاجة إلى تسمية تلك المبهمات كائنة ما كانت . ثم إن المفسرين رحمهم الله عنوانا بالبحث والأخذ والتلقى . فكان من سلف منهم يرونَ فيما يرونَ أن من العلم تفصيل مجملات التنزيل وإبانة مبهمات . حتى جعل ذلك فناً برأسه وألف فيه مؤلفات . ولا بأس فى التوسع من العلم والازدياد منه بأى طريقة كانت . لاسيما وقد رفع عنا الحرج بالتحدث عن بنى إسرائيل . إلا أنه يؤخذ من يجزم بتعيين مبهم ما ، إن كان جزمه من غير طريق القواطع .

(١) [٢٨ / القصص / ٤٣] .

فإن القاطع هو متواتر أو صحّ سنّفه إلى المعصوم، صحة لا مغزى فيها. وهذا مفقود في الأكثر، ومنه بحثنا المذكور. فإن تعيين أن البلدة أنطاكية وتسمية الرسل، إنما روى موقوفاً ومنقطعا، وفي بعض إسناده متهمون. ولذا قد يرد على من يقطع بذلك ما لا يخرج له منه. فالفسر أحسن أحواله أن يعيش مع التنزيل، إجمالاً فيما أجمله وتفصيلاً فيما فصله. ولا يأخذ من إيضاح مبهمات إلا بما قام عليه قاطع أو كان لا ينبذه العلم الصحيح. وإلا فليعرض عن تسويد وجوه الصحف بذلك، بل عن تشويهها. والذي حمل السلف على قص ما نحن فيه، هو تلقيهم له عن مثل كعب ووهب، وموافقة من في طبقتهم لهما فيه. وهذا أولاً، وثانياً شهرة بلدة أنطاكية في ذلك العهد، لا سيما وقد أسس فيها معبداً أحد رسل عيسى عليه السلام. ثالثاً ما جرى في أنطاكية لما قدم ملك الرومان وتهدد كل من أبي عبادة الأوثان بالقتل. وكان في مقدمة الآيين رجل مقدم في المؤمنين. فأراد على الشرك فأبى وجهر بالتوحيد. فأرسله من أنطاكية موثقاً وأمر بأن يطعم للوحوش: فألقى في رومية إلى أسدين كبيرين فابتلعاه. ولما قدم لهما استبشر وتهلل لفيل الشهادة في سبيل الله. وكذلك يؤثر عن رجل مؤمن كان يدافع عن المؤمنين في عهد الرومانيين لغيرته وصلاحه. فطلب منه الحاكم أن يرتد فأبى وجهر بوجود عبادة الإله الواحد، ونبذ عبادة من لا يضر ولا ينفع. فهدده بأن يضر به من الرأس إلى القدم. فأجاب بأنه مستبشر بنعمة الله وكرامته الأبدية. ثم أمر به الحاكم فقتل مع رفقة. والشواهد في هذا الباب لا تحصى. معروفة لمن أعار نظره جانباً مما كتب في تواريخ مبدأ ظهور الأديان، وما كان يلاقيه من أعدائه ومقاوميه. فللقصة الكريمة هذه مصداقات لا تحصى. رابعاً شهرة المرسلين برسل عيسى عليه السلام، وكانوا انبثوا في البلاد لمحو الوثنية والكف عن الكبرياء والشُرور التي كانت عليها دولة الرومان وقتئذ. وهذا وما ذكره ابن كثير من وقوف عذاب الاستئصال بعد نزول التوراة يحتاج إلى قاطع. وإلا، فقد خربت كثير من البلاد الأنيمة بعدها، وتدمرت بتسليط الله من شاء عليها. والصيحةُ

أعم من أن تكون صيحة سماوية أو صيحة أرضية . وهي صيحة من سلط عليهم للانتقام منهم ، حتى أباد ملكهم وقهر صوتهم ومحا من الوجود سلطانهم . وإن كان عذاب الصيحة ظاهره الأول . وبالجملة فنحن يكفيننا من النبا الاعتبار به وفهمه مجملا ، وأما تعيينه ، بوقت ما ، وفئة ما ، فهو الذى ينشأ منه ما ينشأ . وما بنا من حاجة إلى الزيادة عن الاعتبار ، وتخصيص مالا قاطع عليه .

الثانى - ذكر الرازى فى قوله تعالى (إِذْ أَرْسَلْنَا) لطيفة ، إن صح أن الرسل المنوه بهم هم رسل عيسى عليه السلام . وهى أن إرساله لهم كإرساله تعالى . لأنه بإذنه وأمره . وبذلك تنمى التسليمة للنبي صلوات الله عليه ، لصيرورتهم فى حكم الرسل .

ثم قال : وهذا يؤيد مسألة فقهية . وهى أن وكيل الوكيل بإذن الموكل ، وكيل الموكل لا وكيل الوكيل . حتى لا ينعزل بمنزل الوكيل إياه ، وينعزل إذا عزله الموكل الأول . انتهى .

الثالث - فى قوله تعالى (وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى) تبصرة للمؤمنين وهداية لهم ليكونوا فى النصح باذلين جهدهم كما فعل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (يَحْسَرَةَ عَلَى الْعِبَادِ ، مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

«يَحْسَرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ» أى ينادمة عليهم تكون يوم القيامة بسبب استهزائهم وسخريتهم فى الدنيا بالناصحين ، حتى أفضى بهم الحال إلى قتلهم كما فعل أصحاب القرية . أو المراد شدة خسرانهم حتى استحقوا أن يتحسر عليهم أهل الثقلين . أو التحسر منه تعالى مجازا . وتقريره أن التحسر ما يلحق المتحسر من الندم

حتى يبقى حسيرا . وهو لا يلبق به تعالى . فيجمل استعارة ، بأن شبه حال العباد بحال من يتحسر عليه الله فرضا ، فيقول ، يا حسرة على عبادى . قيل : وهو نظير قوله تعالى (١) (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ) على القراءة بضم التاء ، فالنداء للحسرة تعجب منه . والمقصود تعظيم جنائهم . أى عذها أمرا عظيما يتعجب منه . أفاده الشهاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (الْمُ يَرَوْنَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ) «الْمُ يَرَوْنَ» أى يخبروا «كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ» أى من الأمم الخالية «أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ» أى كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)

«وَإِنْ كُلٌّ» أى من هؤلاء المتفرقين «لَّمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ» أى إجماعهم محضرون للحساب والجزاء ، وإنما أخبر عن (كل) بجمع ومعناها واحد ، لأن (كلا) تفيد الإحاطة حتى لا ينفات عنهم أحد . و (جميع) تفيد الاجتماع ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، وبينهما فرق . ومن ثم وقع أجمع فى التوكيد تابعا (لكل) ، لأنه أخص منه وأزيد معنى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَنَهُ يَأْكُلُونَ)

[٣٤] (وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ)

[٣٥] (لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ)

«وَآيَةٌ لَهُمُ» أى عبرة لأهل مكة عظيمة «الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا» أى بالنبات

(١) [٣٧ / الصفات / ١٢] .

لتدل على إحياء الموتى « وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مَنَّاتٍ مِّنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ » أى : وليأكلوا مما عملته أيديهم ، وهو ما يتخذ منه كالعصير والدبس ونحوها ، على ما استظهره القاضى . وقال الزمخشري : أى عملته بالفرس والسقى والآبار . قيل وهذا التفسير خلاف الظاهر . أى لاحتياجه إلى تجوز . إلا أن فيه تذكيرا ببلدة ثمرة العمل وسرور النفس بعمده . وفى الحديث (أفضل الكسب بيع مبرور ، وعمل الرجل بيده) رواه الإمام ^(١) أحمد عن أبى بردة . وجوز أن تكون (ما) نافية ، والمعنى : أن الثمر يخلق الله لافعلهم « أَفَلَا يَشْكُرُونَ » أى خلق هذه النعم الجسام بعبادته وحده . وهو إنكار لعدم قيامهم بواجب الشكر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (سُبْحٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)

« سُبْحٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا » أى الأصناف كلها « مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ » أى مما ذكر وغيره « وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ » أى الذكر والأنثى « وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ » أى من الأصناف والأنواع الموجودة فى البر والبحر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَأَيَّةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ)

« وَأَيَّةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ » بيان لقدرة تعالى فى الزمان ، إثر ما بينها فى السكان . أى نزيله ونكشفه عن مكانه . استعير لإزالة الضوء ، السلخ الذى هو كشط الجلد وإزالته عن الحيوان المسلوخ . وفيه إشارة إلى أن النهار طارئ على الليل ، كما أن المسلوخ

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٦٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

منه قبل المسلوخ ، الذى هو كالغطاء الطارىء على المغطى . قال الشهاب : لان الليل سابق عرفا وشرعا . ومعنى (مظهون) داخلون فى الظلام . يقال (اظلمنا) كما يقال : اعتمنا وأدجيناً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

« وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » أى لحد لها مؤقت مقدر ينتهى إليه دورها اليومى أو السنوى . شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره . فالمستقر اسم مكان تقطعه فى حركتها الدائمة ثم تعود . ووجه الشبه الانتهاء إلى محل معين ، واللام تمليلية أو بمعنى (إلى) . وقيل مستقرها منقطع جريها عند حراب العالم . ومستقر ، عليه ، اسم زمان « ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » أى ذلك الجرى المتضمن للحكم والمصالح والمنافع ، والمدهش نظام سيره وإحكامه بلا اختلال ، تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور ، المحيط علماً بكل معلوم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ)

« وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ » أى صيرنا له منازل ينزل كل ليلة فى واحد منها « حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ » أى حتى إذا كان فى آخر منزله ، دق واستقوس وصار كالعذق المقوس اليابس ، إذا حال عليه الحول . فالعرجون هو الشمروخ ، وهو العنقود الذى عليه الرطب ، ويسمى العذق ، بكسر العين . والقديم : العتيق ، وإذا قدم دق وانحنى واصفر . فشبه به من ثلاثة أوجه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ،

وَكَأَنَّ فِي فَلَكَ يَسْبَحُونَ)

« لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ » أى تجتمع معه فى وقت واحد، وتداخله فى سلطانه فتطمس نوره « وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ » أى يسبقه بأن يتقدم على وقته فيدخل قبل مضيه . أو المراد بالليل والنهار آياتها . أى ولا القمر سابق الشمس فيكون عكساً للأول . أى ولا القمر ينبغى له أن يدرك الشمس . والمعنى على هذا ، أن كل واحد منهما لا يدخل على الآخر فى سلطانه ، فيطمس نوره ، بل هما متعاقدان بمقتضى تديره تعالى ، وعليه فسر إيثار (سابق) على (مدرك) كما قبله ، هو أن السابق مناسب لسرعة سير القمر . إذ السابق يشعر بالسرعة ، والإدراك بالبطء . وكذلك الشمس بطيئة السير تقطع فلحها فى سنة . والقمر يقطعه فى شهر . فكانت الشمس لبطنها جدرة بأن توصف بالإدراك . والقمر لسرعته جديراً بأن يوصف بالسبق .

لطيفة :

قال الناصر فى (الانتصاف) : (يؤخذ من هذه الآية أن النهار ، تابع لليل ، وهو المذهب المعروف للفقهاء . وبيانه من الآية أنه جعل الشمس التى هى آية النهار غير مدركة للقمر الذى هو آية الليل .

وإنما نقي الإدراك لأنه هو الذى يمكن أن يقع ، وذلك يستدعى تقدم القمر وتبعية الشمس . فإنه . لا يقال (أدرك السابق اللاحق) ولكن (أدرك اللاحق السابق) وبحسب الإمكان توقيع النفي . فالليل إذا متبوع والنهار تابع . فإن قيل : هل يلزم على هذا أن يكون الليل سابق النهار ، وقد صرحنا الآية بأنه ليس سابقاً ؟ فالجواب أن هذا مشترك الإلزام . وبيانه : أن الأقسام المحتملة ثلاثة : إما تبعية النهار لليل وهو مذهب الفقهاء ، أو عكسه وهو المنقول عن طائفة من النحاة ، أو اجتماعهما . فهذا القسم الثالث منتهى بالاتفاق . فلم يبق إلا تبعية النهار لليل وعكسه . وهذا السؤال وارد عليهما جميعاً . لأن من قال إن النهار سابق الليل لزمه أن يكون مقتضى البلاغة أن يقال (ولا الليل يدرك النهار) فإن المتأخر إذا نقي إدراكه

كان أبلغ من سابقه ، مع أنه يتناهى عن مقتضى قوله (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ) تنائياً لا يجمع شمل المعنى باللفظ . فإن الله تعالى نفي أن تكون مدركة ، فضلا عن أن تكون سابقة . فإذا أثبت ذلك ، فالجواب المحقق عنه ، أن النفي السبقية الموجبة لتراخي النهار عن الليل ، وتخلل زمن آخر بينهما . وحينئذ يثبت التعاقب ، وهو مراد الآية . وأما سبق أول المتعاقبين للآخر منهما ، فإنه غير معتبر . ألا ترى إلى جواب موسى بقوله (١) (هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ آثَرِي) فقد قربهم منه عذراً عن قوله تعالى (٢) (وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ) فسكانه سهل أمر هذه العجلة بكونهم على أثره . فكيف لو كان متقدماً وهم في عقبه لا يتخلل بينهم وبينه مسافة ، فذاك لو اتفق ، لكان سياق الآية يوجب أنه لا يبعد عجلة ولا سبقاً . فحينئذ يكون القول بسبقية النهار لليل ، مخالفاً صدر الآية على وجه لا يقبل التأويل . فإن بين عدم الإدراك الدال على التأخير والتبعية ، وبين السبق بوناً بعيداً ، ومخالفاً أيضاً لبقيّة الآية . فإنه لو كان الليل تابِعاً ومتأخراً ، لكان أحرى أن يوصف بعدم الإدراك ، ولا يبلغ به عدم السبق . ويكون القول بتقدم الليل على النهار مطابقاً لصدر الآية صريحاً ، ولمجزها بوجه من التأويل مناسب لنظم القرآن . وثبوت ضده أقرب إلى الحق من جبل وريده ، والله الموفق للصواب من القول وتسديده . انتهى .

« وَكُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » أى كل مما ذكر يجرون في مدار عظيم كالساج في الماء . وتقدم لنا في سورة الأنبياء ، مقاله بعض علماء الفلك في مثل هذه الآية . فراجعه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ)

« وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ » أى حملنا أولادهم الذين يرسلونهم

(١) [٢٠ / طه / ٨٤] . (٢) [٢٠ / طه / ٨٣] .

في تجارتهم. قال الشهاب: ولا يخفى مناسبتة لقوله قبله (فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) وذَكَرَ (المشحون) أقوى في الامتنان بسلامتهم فيه، أو لأنه أبعد عن الخطر، وقيل المراد فلك نوح عليه السلام. فهو مفرد، وتعريفه للعهد. والمعنى حمل آبائهم الأقدمين الذين بهم حفظ بقاء النوع لماسم الطوفان، ونجوا مع نوح في السفينة. وإنما كان آية، لأن بقاء نسلهم ونجاتهم بسفينة واحدة، صنع عجيب ومقدور كبير. وآثر البعض الوجه الأول، لأن الثاني محتاج للتأويل. وأرى جدارة الثاني بالإثبات لقاعدة الحمل على الأشباه والنظائر، ما وجد له سبيل. لأنه أقرب وأسد. وقد جاء نظيره آية (٢) (إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكَرَةً وَتَعِيماً أُنْذِرَ وَاَعِیَةً) وإن ورد في نظير الأول آية (٢) (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) وأشباهاها، إلا أن لفظ الحمل أحمد في الآيتين، فقارب ما بينهما.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ)

« وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ » أي مثل الفلك « مَا يَرْكَبُونَ » أي من الإبل فإنها سفائن البر لكثرة ما تحمل، حتى شاع إطلاق السفينة عليها. كما قيل (سفائن برّ والسراب بحارها) أو ما يركبون، أي من السفن والزوارق على الوجه الثاني. وهو أن يراد بالفلك سفينة نوح.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقِذُونَ)

« وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ » أي لا مغيث لهم، أو لا مستغيث منهم، أو لا استغاثة. وذلك لأن الصريح يكون المغيث والمستغيث وهو الصارخ. ومصدر اللثلاثي

كالصراخ ، يتجاوز به عن الإغائة ، لأن المغيث ينادى من يستغيث به ويصرخ له ، ويقول . جاءك العون والنصر . أشد البرد^(١) في أول الكامل :

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَرَزَعٌ كان الصراخُ له قَرَعَ الظَّنَّابِيبِ
أى إذا أتانا مستغيث ، كانت إغائته الجذ في نصرته .
« وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ » أى ينجون من الموت به .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤٤] (إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ)

« إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ » أى لكن رحمتنا ومتعناهم إلى زمن قدر لهم ، يموتون فيه بعد النجاة من موت الفرق . ومن هنا أخذ أبو الطيب قوله^(٢) :

وإِنْ أَسَلَمَ فَمَا أَبَقَىٰ وَلَكِنْ سَلِمْتُ مِنَ الْجَمَامِ إِلَىٰ الْجَمَامِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ » أى من الوقائع الخالية في الأمم المكذبة للرسل « وَمَا خَلْفَكُمْ » أى من العذاب المعد في الآخرة ، أو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ،

(١) قائله سلامة بن جندل السمدى . وهو البيت السادس والثلاثون من المفضلية الثانية

والعشرين ، التى مطلعها :

أودى الشبابُ حميداً ذو التعاجيبِ أودى ذلك شأؤُ غيرِ مطلوبِ

(٢) من قصيدته التى مطلعها :

مُلُومِكَا يَجِلُّ عَنِ الْمَلَامِ ووقِعُ فعَالِهِ فَوْقَ الْكَلَامِ

قالها لما نالته بمصر حمى . فقال يصفها ويمرّض بالرحيل عن مصر .

أو عكسه ، أو ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر « لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أى باتقائكم وشكركم .
وجواب (إِذَا) محذوف دل عليه قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)
« وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ » أى الدالة على صدق الرسل « إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ » بالتكذيب والصدّة عن الإيمان بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا
أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ وَاِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » أى تصدقوا على الفقراء من مال الله الذى آتاكم « قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ وَاِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » أى حيث أمرتمونا بما يخالف مشيئة الله . وقولهم هذا ، إمامتهم أو عن اعتقاد . وجوز أن يكون (إِنْ أَنْتُمْ) جواباً من الله لهم ، أو حكاية لجواب المؤمنين . وفى هذه الآية أبلغ زجر عن اقتصاص ما يحكى عن البخلاء ، فى اعتذارهم بمثل ما ضلل به المشركون ومجاراتهم فيه . فإن ذلك من اللؤم وشح النفس وخبث الطبع . وإن كان يورده بعضهم للفكاهة أو الإغراب . كما فعل الجاحظ سماحه الله فى كتاب (البخلاء) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)
« وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » يمتنون وعد البعث .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ)

« مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » أى يتخاصمون فى متاجرهم ومعاملاتهم . أى أنها تبعثهم وهم فى أمنهم وغفلتهم عنها . و (يخصمون) بفتح الياء وكسر الخاء لالتقاء الساكنين . والصاد على الأصل ، وأصله (يختصمون) سكنت التاء وأدغمت ، ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ)

« فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً » أى أن يوصوا فى شىء من أمورهم توصية « وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ » أى لا يقدرُونَ على الرجوع إلى أهلهم ، ليروا حالهم . بل يموتون حيث تفجؤهم الصيحة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ)

« وَنُفِخَ فِي الصُّورِ » أى للبعث « فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ » أى من القبور « إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » أى يعدون مسرعين . كما فى قوله تعالى ^(١) (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّاعًا) ولا منافاة بين هذا وما فى آية ^(٢) (فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) لأنهما فى زمان واحد متقارب .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٦٨] .

(١) [٧٠ / المعارج / ٤٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ، هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)

« قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا » أى رقادنا أو مكانه . فيقال لهم « هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ » أى المخبرون عن ذلك الوعد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)

« إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ » أى بمجرد تلك الصيحة . وفى كل ذلك تهوين أمر البعث والحشر ، عليه تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (قَالِيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٥٥] (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ)

« قَالِيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ » أى متنعمون متلذذون ، وفى تنكير (شُغْلٍ) تعظيم ما هم فيه وتفخيمه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (هُمُ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَايِكِ مُتَّكِثُونَ)

[٥٧] (لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ)

« هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَايِكِ مُتَّكِثُونَ » أى فى ظلال الأشجار ، أو فى مأمن من الحرور

« عَلَى الْأَرْأْيِكِ » أى السُّرُرُ الزينة « مُتَّكِنُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَلَکِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ »
أى يطلبون .

القول فى تأویل قوله تعالى :

[٥٨] (سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ)

« سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ » أى ولهم سلام يقال لهم قولاً كأننا منه تعالى .
فيكون (سَلَّمَ) مبتدأً محذوف الخبر . أو هو بدل من (مَا) أو خبر محذوف ، أى : هو
سلام . أو مبتدأ خبره الناصب لـ (قَوْلًا) أى : سلام يقال لهم قولاً . أو مبتدأ وخبره (مِن
رَّبِّ) و (قَوْلًا) مصدر مؤكّد لمضمون الجملة . وهو مع عامله معترض بين المبتدأ والخبر .
والمعنى أنه تعالى يسلم عليهم تعظيماً لهم . كقوله^(١) (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُو سَلَّمَ) .

القول فى تأویل قوله تعالى :

[٥٩] (وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)

« وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ » أى عن المؤمنين فى موقفهم . كقوله تعالى^(٢)
(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ
فَزَيْلَنَا بِبَنِيهِمْ) وقوله^(٣) (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ) ^(٤) (يَوْمَئِذٍ
يَصَّدَّعُونَ) أى يصيرون صدعين فرقتين ^(٥) (أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ
وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤٤] .

(٢) [١٠ / يونس / ٢٨] .

(٣) [٣٠ / الروم / ١٤] .

(٤) [٣٠ / الروم / ٤٣] .

(٥) [٣٧ / الصافات / ٢٢ ، ٢٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ، إِنَّهُ لَكُمْ
عَدُوٌّ مُبِينٌ)

« أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ »
تفريع منه تعالى للكفرة ، يقال لهم إلزاما للحجة . وعهده تعالى إليهم هو ميثاق الفطرة ،
كما قاله القاشاني . أو ما نصبه لهم من الحجج العقلية والسمعية ، الأمرة بعبادته وحده
ونبذ عبادة غيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَأَنْ أَعْبُدُونِي ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

« وَأَنْ أَعْبُدُونِي ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » أي : وأن أفردوني بالعبادة فإنه السبيل
السوي . وفي تنكيره إشعار بأنه صراط بليغ في استقامته ، جامع لكل ما يجب أن يكون
عليه . وأصل لمرتبة يقصر عنها التوصيف ، فالتنوين للتعظيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ، أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ)

« وَلَقَدْ أَضَلَّ » أي الشيطان وأغوى بالشرك « مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا » أي خلقا
كثيرا قبلكم ، فحاق بهم سوء العذاب « أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ » أي من أولى العقل .
إنكار لأن يكونوا منهم . وقد قامت البراهين والإنذارات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[٦٤] (أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)

« هُدِيهِمْ جَهَنَّمَ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » أى ذوقوا حرها اليوم بكفركم فى الدنيا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى عندما يجحدون ما اجترموه فى الدنيا ، ويحافون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ، ويستنطق جوارحهم . قال الرازى : وفى الختم على الأفواه وجوه . أقواها أن الله يسكت ألسنتهم فلا ينطقون بها ، وينطق جوارحهم فتشهد عليهم ، وإنه فى قدرة الله يسير . أما الإسكات فلا خفاء فيه . وأما الإنطاق فلأن اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة . فكما جاز تحركه بها ، جاز تحرك غيره بمثلها . والله قادر على الممكنات . والوجه الآخر ، أنهم لا يتكلمون بشيء ، لا تقطع أعدارهم وانتهت ألسنتهم . فيقفون ناكسى الرؤوس وقوف القنوط اليثوس ، لا يجرد عذراً فيعتذر ، ولا مجال توبة فيستغفر . وتكلم الأيدي ظهور الأمور بحيث لا يسمع معه الإنكار ، حتى تنطق به الأيدي والأبصار . كما يقول القائل (الحيطان تبكى على صاحب الدار) إشارة إلى ظهور الحزن . والأول الصحيح . انتهى . أى لإمكانه وعدم استحالته . فلا تتمذر الحقيقة . ويؤيده آية^(١) (وَقَالُوا لِيَجْزِيَ اللَّهُ ذُنُوبَنَا كَمَا نَحْنُ نَجْزِي ذُنُوبَنَا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

ومن لطائف بعض أدباء العصر ما نظمهم في الفونغراف ، مستشهداً به في ذلك ، فقال :

بنطق الفونغراف لنا دليلٌ على نطق الجوارح والجمادِ
وفيه لسكل ذى نظرهٍ مثالٌ على بدء الخليقة والمعادِ
يدير شئونه فرد بصُورٍ به الأصوات تجرى كالمدادِ
فيثبت رسمها قلم بلوح على وفق المشيئة والمرادِ
وبعد فراغها تمضى كبرق ولا أثر لها في الكون بادِ
تظن بأنها ذهبت جفاء كما ذهبت بريح قوم عادِ
وأحلى رنّها فيه لتبقى كأرواح تجرد عن موادِّ
متى شاء المدير لها معاداً ورام ظهورها في كل نادِ
يدير الصور بالآلات قسراً فينشر ميتها بعد الرقادِ
وهذى آلة من صنع عبدٍ فكيف بصنع خلاق العبادِ؟
تبارك من يعيد الخلق طراً بنفخة صورهِ يوم التنادِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ)

« وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ » أى لو شاء تعالى ، لمسح أعينهم . فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المسلك لهم لم يقدرُوا ، لعاهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا أُسْتَطْعَمُوا مِضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ)

« وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ » أى بتغيير صورهم وإبطال قواهم « عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ » أى مكانهم « فَمَا أُسْتَطْعَمُوا مِضِيًّا » أى ذهاباً « وَلَا يَرْجِعُونَ » أى ولا رجوعاً . أى أنهم لا يقدرُونَ على مفارقة مكانهم . فوضع الفعل موضعه للفواصل . وإذا كان بمعنى (لا يرجعون عن

تسكذبهم) فهو معطوف على جملة (ما استطاعوا) والمراد أنهم بكفرهم ونقضهم ما عهد إليهم ، أحقاً بأن يفعل بهم ذلك . لكننا لم نفعل لشمول الرحمة ، واقتضاء لحكمة إمامهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ)

« وَمَنْ نُعَمِّرْهُ » أى نطل عمره « نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ » أى بتناقض قواه وضعف بنيته حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم ، كما قال عز وجل^(١) (وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا) (ثم رددناه أسفل سفلين)^(٢) « أَفَلَا يَعْقِلُونَ » أى من قدر على ذلك ، قدر على الطمس والمسح ، وأن يفعل ما يشاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ)

« وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ » أى حتى يأتى بشعر . وهذا رد لقولهم أنه صلوات الله عليه شاعر أتى بشعر . قاسوه على من يشعر بقراءة الدواوين وكثرة حفظها . وكيف يشابه ما نزل عليه الشعر ، وليس منه لا لفظاً لعدم وزنه وتفقيته ، ولا معنى لأن الشعر تخيلات ، وهذا حكم وعقائد وشرائع وحقائق .

« وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » أى وما يصح لقامه . لأن منزل النبوة والرسالة يتسامى عن الشعر وقرضه . لما يرى به الشعراء كثيراً من الكذب واللين ومجافاة مقاعد الحقيقة . ولذا قال تعالى : « إِنْ هُوَ » أى القرآن الذى يتلوه « إِلَّا ذِكْرٌ » أى عظة وإرشاد منه تعالى « وَقُرْآنٌ مُبِينٌ » أى كتاب سماوى بين أمره وحقائقه . فلا مناسبة بينه وبين الشعر بوجه ما .

(١) [٢٢ / الحج / ٥] . (٢) [٩٥ / التين / ٥] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ)

« لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا » أى عاقلاً متأملاً ، لأن الغافل كالميت « وَيَحِقَّ الْقَوْلُ » أى وتجب كلمة العذاب « عَلَى الْكَافِرِينَ » أى المعرضين عن اتباعه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَلَكَونَ)

« أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا » أى مما تولينا نحن خلقه ، لم يقدر على إحداثه غيرنا . « أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَلَكَونَ » أى متصرفون فيها تصرف الملاك . أو ضابطون قاهرون لها كما قال (١) :

أصبحتُ لا أحملُ السلاحَ ولا أملكُ راسَ البعيرِ إنْ نفراً

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

« وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ » أى صبرناها منقادة غير وحشية « فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ » أى سركوبهم « وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ » أى ينتفعون بأكل لحمه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ)

« وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ » أى من الجلود والأصواف والأوبار « وَمَشَارِبُ » أى من ألبانها « أَفَلَا يَشْكُرُونَ » أى فيعبدوا النعم بأصناف هذه النعم الجسيمة .

(١) قائله الربيع بن ضبع الفزارى . من قصيدته التى أولها :

أفقرَ من مئةِ الجربِ إلى الـ زُجَّينِ إلا الطباءَ والبقرَا

انظر ص ١٥٨ من (نواذر أبى زيد)

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَأَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لَّهُمْ يُنصَرُونَ)

«وَأَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لَّهُمْ يُنصَرُونَ» أى ينصرونهم فيما نابهم من الكوارث.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (لَا يَسْتَطِيعُونَ نصرهم وهم لهم جند محضرون)

«لَا يَسْتَطِيعُونَ نصرهم وهم لهم» أى لآلهمهم «جند محضرون» أى معدون لخدمتهم والذب عنهم . فمن أين لهم أن ينصروهم وهم على تلك الحال من العجز والضعف ؟ أى بل الأمر بالعكس . وقيل : المعنى محضرون على أثرهم فى النار . وجعلهم - على هذا - جندا ، تهكم واستهزاء . وكذا لام (لهم) الدالة على النفع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ . إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ)

«فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ» أى فى الله تعالى بالإلحاد والشرك . أو فى حقك بالتكذيب والإيذاء «إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ» أى فنجازيهم عليه . كنى عن مجازاتهم بعلمه تعالى ، للزومه له . إذ علم الملك القادر بما جرى من عدوه الكافر ، مقتضى لمجازاته وانتقامه . وتقديم السر ، لبيان إحاطة علمه تعالى بحيث يستوى السر عنده والعلانية . أو للإشارة إلا الاهتمام بإصلاح الباطن ، فإنه ملك الأمر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ)

«أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ» أى جدل بالباطل

بين الجدال ، وهذه تسليمة ثانية ، بتهمين مايقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشر . تأثرت الأولى وهي قوله (فَلَا يَحْزُنُكَ) الآية ، عنايةً بشأنه صلوات الله عليه .
قال الطيبي : هذا معطوف على (أولم يروا) قبله . والجامع ابتناء كل منهما على التعميس .
فإنه خلق له ماخلق ليشكر ، فكفر وجحد الغم والمنعم . وخلقه من نطفة قدرة ليكون منقاداً متذلاً ، فطنى وتكبر وخاصم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ)

« وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا » أى فى استبعاد البعث وإنكاره « وَنَسِيَ خَلْقَهُ » أى خلقنا إياه
« قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ » أى بالية أشد البلى ، بعيدة عن الحياة غاية البعد .
وإنما لم يؤنث لأنه اسم لما بلى من العظام . جامد غير صفة ، كالرمة والرفات . أو مشتق ، فعيل
بمعنى فاعل . إلا أنه لما غلب جريانه على غير موصوف ، ألحق بالأسماء فلم يؤنث . أو بمعنى
مفعول . من (رمه) بمعنى أبلاه . وأصله الأكل . من (رمت الإبل الحشيش) فكأن
ما بلى أكلته الأرض . وقال الأزهرى : إن (عظاما) لكونه بوزن المفرد، ككتاب وقراب،
عومل رميم معاملته . وذكر له شواهد .

قال الشهاب : وهو غريب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)

« قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » أى فلا تقاس قدرة الخالق على قدرة المخلوقين .
وإنما تقاس إعادته على إبدائه « وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » أى فلا يتمتع عليه جمع الأجزاء
بعد تفرقها، لملمه بأصولها وفصولها ومواقعها ، وطريق ضمها إلى بعضها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)

«الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ» أى الذى بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً نضراً فأثمر وبنع، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً يوقد به النار، كذلك هو فعال لما يشاء، قادر على ما يريد. لا يمنعه شيء. قال قتادة: الذى أخرج النار من هذا الشجر، قادر على أن يبعثه. وقيل: المراد بذلك شجر المرخ والعفار (من شجر البادية) فى أرض الحجاز. فىأتى من أراد قدح نار وليس معه زناد، فىأخذ منه عودين أخضرين، ويقدح أحدهما بالآخر، فتتولد النار من بينهما كالزناد سواء. روى هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما. والعفار الزند وهو الأعلى. والمرخ الزندة وهو الأسفل. بمنزلة الذكر والأنثى. وعكس الجوهرى فىجعل المرخ ذكراً والعفار أنثى، واللفظ مساعد له. إلا أن الأول يؤيده قول الشاعر^(١):

إذا المرخ لم يُورِ تحت العفّارِ وضُنَّ بقِصْدِ فلم تُعقَبِ

وقال أبو زياد: ليس فى الشجر كله أورى ناراً من المرخ. وربما كان المرخ مجتمعاً ملتقياً، وهبت الريح، وجاء بعضه بمضاً فأورى فأحرق الوادى. ولم تر ذلك فى سائر الشجر. وقال الأزهرى: العرب تضرب بالمرخ والعفار، المثل فى الشرف العالى. فتقول: (فى كل شجر نار. واستمجد المرخ والعفار) أى كثرت فىهما على ما فى سائر الشجر. و(استمجد) استكثر واستفضل. وذلك أن هاتين الشجرتين من أكثر الشجر ناراً. وزنادها أسرع الزناد ورىا. وفى المثل: اقدح بعفار أو مرخ، ثم اشدد إن شئت أو أرخ. ويقال (فى كل شجر نار إلا العنّاب).

(١) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٥٤ من المجلد الثالث (طبعة بيروت).

قال الشهاب : ولذا يتخذ منه مدقّ القصارين . ثم أشد لنفسه :
 أيا شجر العنّاب نارك أوقدت بقلبي . وما العنّاب من شجر النار
 انتهى .

والمقصود أنه تعالى لا يمتنع عليه إعادة المزاج الذي به تعلق الروح بعد انعدامه بالسكّية .
 لأن الذي يبذل مزاج الشجر الرطب بمزاج النار ، وهي حارة يابسة بالفعل ، مع ما في الشجر
 من المائية المضادة لها ، أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضاً ، تطراً عليه اليبوسة
 والبلى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدْرِ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ،
 بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

« أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » أى مع كبر جرمهما « بِقَدْرِ عَلَىٰ أَنْ
 يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » أى فى الصغر والضعف ثانياً ، بعد ما خلقهم أولاً « بَلَىٰ » أى هو القادر
 « وَهُوَ الْخَلَّاقُ » أى الكثير الخلق مرة بعد أخرى « الْعَلِيمُ » أى الواسع المعلومات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

« إِنَّمَا أَمْرُهُ » أى شأنه الأعلى أو قوله النافذ « إِذَا أَرَادَ شَيْئًا » أى إذا تعلق إرادته
 بإيجاد شيء « أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » أى فيوجد عن أمره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ » تنزيه له مما وصفه به المشركون ،

وتعجيب من أن يقولوا فيه ما قالوا . وهو مالك كل شيء ، والمتصرف فيه بلا وازع ولا منازع .
« وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » أى بعد الموت ، فيجازيكم بأعمالكم .

فائدة :

قال ابن كثير : الملك والملكوت واحد فى المعنى . كرحمة ورحموت ورهبة ورهبوت وجبر وجبروت . ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجسام ، والملكوت هو عالم الأرواح . والصحيح الأول . وهو الذى عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم . انتهى .
ولبعضهم : إن الملكوت صيغة مبالغة من الملك . فهو بمعنى الملك التام ، والله هو العليم العالم .